

معنى التاريخ عند كارل بوبر

بن معمر جميلة⁽¹⁾

ان كارل بوبر أحد الفلاسفة المعاصرين الذين اهتموا بإعادة قراءة التاريخ الفلسفي قراءة تحليلية نقدية مستعرضا الأفكار العلمية السياسية والتاريخية، وانتهى إلى البحث في مناهج العلوم الاجتماعية مبينا الأسباب التي أدت إلى تأخر هذه العلوم واستحالة التنبؤ بالمستقبل، لأن التاريخ البشري يتأثر تأثرا شديدا بنمو المعرفة، ومعنى ذلك أنه ينبغي أن نبذ إمكان وجود تاريخ نظري أي وجود علم اجتماعي تاريخي يقابل علم الطبيعة النظري.

لقد تقرر لدى بوبر أن فهم المعنى التاريخي بني على مغالطة تاريخية فانتهى به الأمر إلى عرض نقدي لما أسماهم بمؤسسي الفكر التاريخاني خاصة **أفلاطون هيغل** و**ماركس**، وحاول من خلال هذا النقد إعطاء البديل الذي أطلق عليه " **الهندسة الاجتماعية الجزئية** " التي تعني الإصلاح الاجتماعي خطوة بخطوة مشكلة بمشكلة .

هذا الأسلوب الذي انتهجه بوبر في الإصلاح خطوة بخطوة جزء لا يكون فيه إقصاء للوجود الإنساني الفردي ضمن سيروية الوجود وسيروية التاريخ ، بل يتمثل في ذلك الجهد الذي يقدمه كل فرد في المجتمع في حلقات متتالية كل حلقة تحاول حل مشكلة معينة ، وهو ما يؤسس عداء **بوبر** العنيف للنزاعات الكلية التي تحاول رسم المسار التاريخي بمخططات مسبقة لا يكون الفرد فيها سوى أداة تحقق غاية التاريخ الذي انتهى بدوره إلى الانغلاق ففقد كل معنى له !

راح **بوبر** يبحث عن معنى التاريخ خارج الأنساق الكليانية والنزاعات اليوتوبية مستفيدا من تقويضه للإستمولوجيا رافضا سعيها للوصول إلى اليقين والمطلق معتبرا أن المعارف الإنسانية مجرد افتراضات قابلة للنقد والتكذيب وبهذا الفهم تتطور المعرفة الإنسانية تطور دارويني مفتوح، وإذا كان من غير الممكن الوصول إلى معارف معرفة علمية مطلقة فإنه كذلك يستحيل تقديم معنى للتاريخ ضمن الخطابات الكليانية والأنساق الدغمائية المغلقة.

فأي معنى يعطيه **بوبر** للتاريخ ضمن استيمولوجيا داروينية مفتوحة ؟

ثيولوجيا التاريخ:

إن محاولة استخلاص رؤى تاريخية من خلال نظرية المجتمع المفتوح عند كارل بوبر القائمة على أساس ابستمولوجيا داروينية تطويرية مفتوحة يستوجب الرجوع إلى كتابيه الرئيسيين "بؤس التاريخانية" و"المجتمع المفتوح وأعداؤه".

"بؤس التاريخانية" في أصله كتاب نقدي يعبر عن رفض بوبر للأنساق الدغمائية المغلقة ولأنماط التاريخانية التي تجعل الأفراد دمي في لعبة المصير التاريخي وعليه فإن طابع النقد في هذا الكتاب يأخذ اتجاهين : اتجاه أبستمولوجي، واتجاه سياسي وأخلاقي.

لقد وجه بوبر نقدا إبستمولوجيا للخطابات التاريخانية في نزعتها الكلية انطلاقا من تصوره للعلوم الاجتماعية التي يقيمها على أساس أطروحته " منطق الكشف العلمي " منتهيا إلى " منطق العلوم الاجتماعية " .

وبين في هذا النقد أن التاريخانية قائمة على تصورات يوتوبية وتخطيط شامل يلغي تعدد الأفراد ويحوّله إلى وحدة جزافية مؤكدا أن تأويلها للتاريخ يتجرد من أي صفة علمية ولا يعدو أن يكون تنبؤات زائفة يقول كارل بوبر " إن الاعتقاد بالمصير التاريخي مجرد خرافة ، وأنه لا يمكن تنبؤ مجرى التاريخ الإنساني بطريقة من الطرق العلمية أو العقلية"⁽²⁾ وكان الهدف من هذا العمل هو تعرية النماذج الهيغلية والماركسية من الصفة العلمية وفضح الطابع الثيولوجي لهما، أما نقده ذو الطابع السياسي والأخلاقي للخطابات التاريخانية فيكشف الطابع الإيديولوجي لهذه التصورات -تصورات التاريخانية - القائمة على نزعات عنصرية - فكرة شعب الله المختار - ، والرامية إلى تحقيق أغراض سياسية خالية من الوازع الأخلاقي الذي يزرع العنصرية بين أفراد البشرية ويلغي وجودهم ووعيهم وإرادتهم في الحياة من أجل تحقيق

غاية ومصير التاريخ ، يقول بوبر في مقدمة كتابه " بؤس الإيديولوجيا " ... ومن ذلك الحين وفقت إلى تنفيذ المذهب التاريخي، إذ بينت إنه يستحيل علينا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ، ولأسباب منطقية بحتة... ويمكن حصر الدليل في القضايا الخمس الآتية :

- 1/ يتأثر التاريخ الإنساني في سيره تأثيراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية .
- 2/ لا يمكن لنا بالطرق العلمية ، أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية.
- 3/ إذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني .
- 4/ وهذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام تاريخ نظري ، أي إمكان قيام علم تاريخي إجتماعي يقبل علم الطبيعة النظري ، ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح أن تكون أساساً للتنبؤ التاريخي .

5/ إذن فقد أخطأ المذهب التاريخي في تصوره للغاية الأساسية التي يتوصل إليها بمنهاجه وبيبان ذلك يتداعى المذهب التاريخي⁽³⁾ أما كتابه الثاني " المجتمع المفتوح وأعداؤه " وإن كان جوهره قائم على وضع الأطر النظرية " للمجتمع المفتوح " إلا أن بوبر في الفصل الختامي من هذا الكتاب عرج على نقد الإيديولوجيات والأفكار التي تغذي الدعوة إلى المجتمعات والتي من ضمنها التاريخية ، وتجسد ذلك في الفصل الذي علونه هل للتاريخ معنى ؟ يجيب أن " التاريخ بالمعنى الذي يتحدث عنه الكثير من الناس لا وجود له، وهذا الأخير واحد من الأسباب التي تجعلني أقول أن ليس له معنى " (4)

وعلى هذا الأساس قراءتنا للمؤلف " المجتمع المفتوح وأعداؤه " سوف يأخذ اتجاهين أيضاً في محاولة الوصول إلى فكر ومعنى التاريخ عند بوبر، فالالاتجاه الأول نقدي ينطلق من نقد الأنساق ومنظري المجتمعات المغلقة - أفلاطون ، هيغل ، ماركس - والاتجاه الثاني تأسيس ينظر فيه " للمجتمع المفتوح " ونحاول نحن من خلال كل هذا أن نستشف بعض الرؤى التاريخية عند بوبر باحثين معنى التاريخ عنده ، يقول كارل بوبر " في الوقت الذي أنا منشغل بتحليل منهجي ونقد هذه الإدعاءات لقد حاولت أيضاً جمع مادة علمية لتوضيح تطورها والملاحظات التي جمعتها لهذا الغرض أصبحت أساساً لهذا الكتاب، إنه كتاب لا يحاول استبدال الأنساق الفلسفية القديمة بنسق جديد، إنه بالأحرى كتاب يحاول إظهار أن هذه الحكمة التنبؤية ضارة وأن ميتافيزيقا التاريخ تعيق المناهج العلمية على مشكلات الإصلاح الاجتماعي ."

ينطلق بوبر من مسلمة أساسية : أنه لا يمكن رد التاريخ إلى ما هو كلي يشمل كل الحوادث والأفعال الإنسانية، أي أنه يدعو إلى إخراج التاريخ من مكالب النموذج أو النسق المغلق إلى فتح آفاق هذا التاريخ بحيث يتجاوز هذه الآفاق نموذج تاريخي محدد. هذا الموقف الشمولي للتاريخية، " يجعلها ضمن المنظور الذي تبنيه الطوباوية، كلاهما يدعو إلى رؤية تغير المجتمع كلية ، وليس هناك إمكانية لتقومه جزئياً، فتوحّد التاريخية والطوباوية في تمازج مفارق داخل أغلب النظريات الثورية، إن بوبر وهو يدافع عن سياسة إصلاحية كان عليه إذن رفض الخاصية اللاعقلانية للأسطورة التاريخية . " (5)

إن فلسفات التاريخ بالنموذج الهيجلي قد أعطت أطر جاهزة وحاولت تطبيقها على الواقع الإنساني، بل إعتقدت أن هذا الواقع ضرورة تسير وفق تلك الخطط الجاهزة بحجة أن المجتمع الإنساني تعلوه وقائع عليا - الروح - تحدد مساره التاريخي من غير أن يكون لأفراد هذا المجتمع تأثير على توجيه هذه الروح أو قيادة ذلك المسار يقول كارل بوبر "يعتقد التاريخي واليوتوبي بقدرته على اكتشاف أهداف المجتمع أو غاياته الحقيقة بأن يكون ذلك يعيق اتجاهات المجتمع التاريخية أو يشخص " حاجيات العصر " الذي يعيش فيه - فهما يعتقدان أن الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ أمر لا مفر منه ، وأننا لا مهرب لنا من وضع الخطط شئنا ذلك أم لم نشأ " (6)

لقد أفضت المعطيات الأولية التي قدمتها فلسفة التاريخ من النوع الهيجلي: الروح ، الكلي المصير المشترك، الغاية التاريخية، دهاء العقل ... إلى سلب قدرة الفعل على الفرد الإنساني والإقرار بعدم قدرته كعنصر جزئي ضمن الكل في تغيير مجرى التاريخ بحجة أن هذا المجال يعلو قدرة الفرد وينسبها إلى الجماعة ، وليس بمقدور الفرد سوى الخضوع لتلك الجماعة والإقرار بغايتها ، إذ يعتقد التاريخانيون " إن خضوعنا لقوانين التطور القائمة هو كخضوعنا لقانون المجاذبية أمر لا مفر منه، وأن أكثر المواقف مطابقة للعقل هو أن يعدل المرء مجموع القيم التي يأخذ بها بحيث تصير موافقة للتغيرات الموشكة على الوقوع " (7)

وفي هذا الإطار، سنتعرض ولو بجز بسيط لأهم النقاط النقدية التي يوجهها بوبر إلى هذا النمط من فلسفة التاريخ والتي يعتقد أنها ليست وليدة الفلسفة الهيجلية والماركسية فحسب بل وليدة النزعة التاريخانية أيضاً والتي عرفت تطورات اختلفت أشكالها الفكرية عبر مختلف

العصور قبل تحديد كنموذج سياسي فكري اجتماعي، والمتمثلة خاصة في المقارنة الهيجلية والماركسية يقول بوبر : أعني بالمذهب التاريخي طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض الوصول إليها بالكشف عن "الإيقاعات" أو "الأنماط" أو "القوانين" أو "الاتجاهات" التي يسير التطور التاريخي وفقا لها"⁽⁸⁾

تعود جذور هذا التأسيس التاريخي إلى الفهم الدوري للتاريخ كما نجده عند هيراقليطس وحتى القديس أغسطين في العصور الوسطى والتي تتجلى معها بوضوح فكرة اللاهوتية المقدسة في هذا النمط التاريخي لتضاف عليها فكرة المصير مع كل من توينبي شبنجلر في العصر المعاصر حوصلت الفلسفة الهيجلية كل هذه التطورات وادعت أنها أعطت نموذجاً كاملاً لفلسفة التاريخ.

إن المتأمل لفلسفة التاريخ الهيجلية مثلاً يجدها مليئة بالكثير من الحشائث اللاهوتية والممارسات الدينية التي أعاد هيجل تأويلها على أنها تحليلات واعية للعقل كاسمى نموذج للبرهنة وإحلال المطلق في التاريخ، وهي الحيلة التي استعملها هيجل لدمج العنصر الديني في المسار الإنساني بوصفه وسيلة لإحداث التطابق الذي هم به هيجل بين المتناهي واللامتناهي⁽⁹⁾. إن التطابق الذي يسعى هيجل لإحداثه خلال كل مسار نسقه الجدلي قد حول به الدين إلى فكر ثم حول الفكر إلى وجود، إنَّ هذا التطابق إنما ينبع من دغمائية فلسفية تسعى لتأكيد تمظهر الإله في الكون وهو بذلك ينطلق من المفهوم المسيحي عن الإله "لقد ترسخ في التعاليم المسيحية أن الله يكشف عن نفسه في التاريخ، وأن للتاريخ معنى هو مشيئته. وهكذا وضع الاعتقاد بأن التاريخانية عنصر ضروري من عناصر الدين غير أنه يأبى الاعتراف بذلك ويؤكد أن هذا الاعتقاد هو محض "وثنية" وخرافة من وجهة نظر العقلانية أو الإنسانية، بل من وجهة نظر المسيحية نفسها"⁽⁹⁾

لقد منح هيجل للفلسفة كل القدرة على إدراك فكرة الله باعتبارها الصورة المطلقة، بل اعتبرها الوسيلة لإحداث انكشاف هذه الفكرة في الوجود، وإن كان لابد لهذه الفكرة أن تتحقق في وجودها الفعلي في الكون بحكم الضرورة المفترضة في النسق الهيجلي التي تغدو بالنسبة إليه الغاية التي يصبو إليها هذا المسار.

هذا الأمر دفع ببوبر للاعتقاد أن هيجل لم ينزل إلى الواقع الإنساني لفهم سيورته بقدر ما حول الميتافيزيقا على تاريخ من خلال مقولات المطلق المتحرك، يقول كارل بوبر "إنَّ هذه التاريخانيات بما فيها تاريخانية هيجل ترى في التاريخ نوع من دراما شكسبير حيث يكون الممثل الرئيسي هو الشخصية الكبرى في التاريخ التي تمثل الإنسانية".⁽¹⁰⁾

وإن كانت الروح المطلقة كما فهمها هيجل تتمظهر في الكون وفق نسقها الجدلي، فإن فلسفة التاريخ هي مجال وصف هذه الروح الساعي إلى تطابقها مع المتناهي في الطبيعة فيكون التاريخ هو المجال الذي تصبح فيه الروح والطبيعة شيئاً واحداً، غير أن هذه الوحدة لا تتحقق في الفرد بوصفه فرداً وإنما تتحقق في الجماعة لأن غاية التاريخ لا يحققها الفرد لكن الجماعة وحدها هي التي تستشعر هذه الغاية وفق خططها، فالمذهب التاريخاني "يتنبأ بأنك لن تستطيع أن تحقق شيئاً بأحلامك بما يركبه عقلك طبقاً لخطة مرسومة فلا تأثير للخطط التي تماشى مع تيار التاريخ الرئيسي".⁽¹¹⁾

وفي هذا المستوى يكون هيجل أشبه باللاهوتيين منه إلى الفلاسفة في اعتماده على النصوص الدينية كإنجيل يوحنا الذي يقر بالمسيح الكوني وهو الكلمة المتجسدة والتي حولها هيجل إلى الفكرة المطلقة، وكأننا نعود هنا إلى فكرة العصور الوسطى التي ترجع إلى سيورته المسار التاريخي على الإرادة الإلهية وما البشر إلا مسيرين من قبلها وليست بيديهم أية قدرة أمام قدرة اللامتناهي، فكأن التاريخ الذي يتحدث عنه هيجل لاهوتي لا تاريخ البشر من حيث اعتبر أن الروح هي وجود الجماعة والجماعة هي الروح الموجودة أي وجود الإله (الروح) هو الجماعة يقول كارل بوبر: ... أن التاريخ القابل للفهم بواسطة التأويل تألهي مثل الاعتراف بأن الله هو مؤلف المسرحية التي تؤدي عبر مراحل التاريخ ... تؤكد نظرية شعب الله المختار على الخصوص أن الله قد اختار شعباً واحداً يشغل كوسيلة فعالة لإرادته، وأن هذا الشعب هو الذي سيرث الأرض".⁽¹²⁾

ومن جهة أخرى فإن هذا التطابق الذي أجهد هيجل نفسه تحقيقه في التاريخ يحيلنا إلى مقارنة أخرى يضعها القديس أغسطين بين مدينة الله ومدينة الشيطان، فهو يتجاوز تعارضات التقليدية بين الدنيا والآخرة، المتناهي واللامتناهي، وكأنها تماثل العالم المعقول بالتاريخ المقدس والعالم المحسوس بالتاريخ المدنس وإن كان هيجل لا يعطي الغلبة لمدينة الله لكنه يسعى لإحداث التطابق بين العالمين وبالتالي يكون طموح مملكة الروح-العالم العقلي-هو الوصول إلى الكونية

لغاء الفرد من الوجود التاريخي:

يسعى هيغل إلى إحداث التسامي بين المتناهي واللامتناهي تحقيقاً لفكرة الكلية وهو بذلك يهدد بسحق الإنسان وابتلاع كل خصوصياته داخل الجماعة، وهو الطابع الذي يميز كل أنماط فلسفات التاريخ الشمولية تتبلع وتلغي الوجود الفردي وتقضي كل قدراته بغرض جعل انطفاء هذا الفرد انفجاراً وإشعاعاً للمطلق، بمعنى يمكن أن نقول أن سيرورة التاريخ عند هيغل وماركس كانت مشروطة بلا فعالية الفرد، والذي غدي حسب هذا النموذج غائباً عن حركة التاريخ أو بفهم آخر تابعاً للروح الكلية لا صانعاً للمسار التاريخي. إن المخطط الكلي الذي تقوم عليه فلسفة التاريخ الهيجلية والماركسية وكذا أفكار توينبي شبنجلر يغفل الحقيقة الآنية أو التجارب الأنطولوجية التي يؤسس لها الأفراد بحجة الغاية التي يهدف إليها التاريخ - كما يرى كانط أيضاً - بل أن للفرد لا كيان له إلا من خلال علاقته بالكل " فالكلون لا يهدفون فقط إلى دراسة مجتمعتنا بواسطة منهج يمتنع عن التحقيق، بل إنهم يقصدون أيضاً التحكم في هذا المجتمع و إعادة إنشائه ككل".⁽¹³⁾

حاولت هذه التاريخانيات أن تؤسس لفكرة التاريخ لكن بقيت هذه الفكرة متعالية عن الواقع الإنساني لأنها لم تجعل مسيرة التاريخ في يد الأفراد بقدر ما منحت لروح الجماعة، وإن النموذج الهيجلي والماركسي لم يجعل من الإنسان هو الغاية و الهدف بل جعل منه وسيلة لتحقيق الغاية التي يحملها التاريخ، لقد كان الكلي في هذه الفلسفات هو الفاعل الحقيقي في التاريخ، أي التصورات العامة هي وحدها القادرة على إدراك هذه الحقيقة، تبعاً لهذا فإن الموضوع الحقيقي للتاريخ هو الكلي وليس الفرد الذي لا يمكن أن يكون إلا جزء من ذلك الكل، ولا يمكن لمصالح الأفراد وحاجاتهم أن تشكل حقيقة الكلي لأنه يسمو على المصالح الشخصية ويهدف إلى الحرية يعبر كارل بوبر عن رفضه لهذه النماذج الكلية بقوله: " المخطط الكلي يغفل الآنية"⁽¹⁴⁾ أي من السهل تركيز السلطة لكن من المستحيل التركيز على المعارف الموزعة على كثير من العقول الفردية.

كرس هيغل جهده من أجل أن يوصل التاريخ إلى نقطة " سياسة الروح الكلية " ووضع لها مجموعة من القوى تتحكم في التاريخ نفسه المتحكم فيها. إن هذه الروح تندفع إلى الأمام اندفاع الطوفان، ولا يهمها أن تجلب معها الدمار والبؤس فتجعل من التاريخ المذبح الذي تضحي فيه بسعادة الشعوب، وحكمة الدول وفضائل الأفراد لأنهم لا يمثلون بالنسبة لهيغل سوى ما يسميه " بدهاء العقل " من أجل أن يجعل الواقع معقولاً. إن العقل الهيجلي أحل الظلم والشقاء من أجل تحقيق عقلانية الواقع وضحي بسعادة الأفراد باعتبار أن "التاريخ ليس مسرحاً للسعادة بل أن فترات السعادة خالية فيه"⁽¹⁵⁾

رغم لقوة النظرية التي قدمها هيغل في فلسفة التاريخ، إلا أنه لم يستطع أن ينظر إلى الفعل التاريخي على أنه تقدم^(*) الذات الإنسانية الفردية بل إنه سعى دائماً إلى إقصاء كل خصوصية فأضحى هذا التاريخ تاريخ اغتراب الإنسان. وأفضل ما يمكن لهذه النزعات التاريخانية هو قدرتها على التنبؤ القائمة على فكرة المصير التاريخي الذي يمكن فيلسوف التاريخ أن يتنبأ بمجرى حوادث التاريخية على أساس قوانين يستخلصها من دراسة الماضي وفق معطيات الحاضر فتوصله إلى نتائج يحدد بها المستقبل الإنساني " إن أهم المغالطات التي يقع فيها التاريخانيون هي أنهم يشعرون أمثلة من التنبؤات من العلم الطبيعي باعتبارها تشكل ماهية التنبؤ العلمي، ويفوتهم أن هذه التنبؤات لا تنطبق إلا على الأنظمة التكرارية الموقوتة المعزولة، ثم أن يطبقوا منهج التنبؤ العلمي على المجتمع البشري والتاريخ الإنساني"⁽¹⁶⁾

يمكننا أن نسائل فلاسفة التاريخ: إلى أي مدى أن تخضع الميولات والاتجاهات بل الإرادات الفردية الإنسانية الفاعلة إلى التنبؤ؟ ألا يمكن لهذه الإرادات أن تبدع ما لا يمكن للقانون التنبؤ به؟ إن دراسة الأحداث والوقائع التي يضعها الأفراد يتميزون بإرادتهم الفاعلة، ويصبح التنبؤ فيها مجرد تقرير لما وقع في الماضي. إن هذا التاريخ يصبح لا شيء بدون الأفراد وتلقائيتهم.

إن المعرفة التاريخية كحبات الزئبق تنفلت منا كلما أوشكنا على الإمساك بها، فهناك قوة توجه هذه الأحداث في غير المسار الذي تتنبأ به، إنها قوة الفرد الخاضعة للتطور المعرفي المستمر، مما يمنح المزيد من الإدراك والاستبصار والقدرة على تجاوز الروح الكلية والغاية التي تحدث عنها كانط وهيغل، لأن كل من الروح والغاية إنما تحقق الفرد في نظام مركزي أو فكر كلي تحدده الجماعة، والتي تلغي بذلك التجارب الأنطولوجية الفردية أو ما سماه دالتي بالتمثالات التاريخية حينما أنتقد هيغل بقوله إنه جمع عدة تمثالات تاريخية في تمثّل واحد، أما بوبر فقد كشف أن خطاب التقدم المبني على خطاب كلياني أساسه محاربة العقل وحرية الفكر " وعلى هذا النحو تصبح مطلقيته " الكل " هي

مستقبلية التقدم وتتصاعد هذه المطلقة لتبلغ نموذج تاريخاني وتنزل إلى أوامر مغيبة لكل وجود يلحق الفردي في التعبير عن نفسه ، هكذا يعارض التقدم الفردي بإعتباره لا تاريخيا وهكذا يصبح جوهر الكل جوهرًا أزليا مطوقا كل ممارسة فردانية⁽¹⁷⁾

لم تستطع التاريخانية أن تستوعب أن ما يصدق على فترة تاريخية معينة قد لا يصدق على كل الفترات التاريخية ، وبهذا الفهم فإننا لا نسعى إلى جعل التاريخ مجرد تكرار لأحداث الماضي ولا يمكن اعتبار الصيرورة، التغير، الروح، الطبقة ... قوانين كلية ومطلقة لأن الفترات التاريخية لا تحدث عادة أو نتيجة للمخطط العقلية التي يرسمها فلاسفة التاريخ ، بل إن التغير لا يحدث إلا وفق لإيرادات الأفراد ، فالتاريخ إذن لا يخضع لهذه المخطط النظرية بنفس التفاؤل الذي يعتمد كانه ، ماركس ، هيغل ... وهو ما عبر عنه بوبر بقوله " لا يمكن أن نرسم للتاريخ خطة وإيقاعا منتظما ونمطا مرسوما ولست أدري فيه إلا المفاجأة تتلوها المفاجأة " .⁽¹⁸⁾

أسس المخطط النظري الهيجلي نهاية تنبئ فيها الدولة كجهاز عضوي مزود بالوعي ماهيته " الفكر " و " العقل " ، لكن الواقع يثبت أن هذا التأسيس النظري إنتهى بنموذج الدولة العنصرية، فروح العالم هي إيديولوجيا التاريخ الطبيعي ولم تكن دولة الحرية التي قال بها هيغل إلا الاضطهاد النازي الذي كتب التاريخ بدماء الضعفاء، كما أنه تدعيم لفكرة اليهودية القائلة بشعب الله المختار وكرست كل أشكال التمييز الحضاري الذي يعطي الأحقية والأفضلية لشعب ما ، ويسلبها عن الشعوب الأخرى وهو نفس المنتهى الذي بلغه ماركس عندما حاول تحرير الفرد من سيطرة وإستلاب الرأسمالية لكنه واقعا أخضعه لسيطرة الدولة وتنظيمها ومخططاتها المركزية ، إن الخطاب التاريخاني يؤدي إلى مزيد "من التشخيص للسلطة والرغبة في الاستيلاء عليها لاستبقاء النفوذ داخل نسق كلي كلياني"⁽¹⁹⁾ وينتهي إلى تأسيس مجتمع مغلق يقوم على الأفكار والقوة ويقضي على كل إمكانية للنقد وممارسة الدحض.

يبدو ظاهريا أن هذه النماذج تحمل الكثير من التفاؤل من حيث أن مبلغها الأخير هو الوصول إلى الحرية المطلقة لكنها في واقع الأمر لا تحمل طابع الضرورة بل أنها تحمل الكثير من التشاؤم في باطنها لأنه تنكر العقل الإنساني وبالقدرة على تحقيق عقلانية الخطة التي تحددها مسبقا ، وهو ما يؤكد عليه شينجلر مثلا حينما يرى أنه لا يمكن للفرد أن يفعل شيئا إذا ولد في عصر الانحطاط وهي بهذا تكتب في الفرد كل أحلامه ورغباته في تحقيق عالم أفضل.

لقد عمل هذا النموذج على سلب حرية الإنسان لأن فعله يصبح مقيد للعقل يسير التيار التاريخي وفق الخطة المرسومة ، في حين أحلام الفرد ، رغباته وميولاته ... لا بد أن تسير وفق الغاية الكلية للتاريخ ، فهو يهدف إلى انحلال الفرد في الجماعة وكأنه نوع من التحكم في مصير الفرد الإنساني من خلال المخططات التي تحدد الضر والنافع ، ويسعى أيضا إلى تغيير الدوافع الإنسانية بحيث يرغمها على توجيه أفكارها وطاقتها البشرية وفق الإستراتيجية التي يحددها مسبقا، يقول بوبر: " يؤمن التاريخانيون بوجود قانون التطور، وينكرون أن تكون عملية التطور فردية، وباستطاعتنا أن نتبين فينا ميلا أو اتجاهًا، ويرجع هذا الموقف إلى فكرة عريقة القدم، هي الفكرة القائلة بأن دورة الحياة المتدرجة في مراحل الميلاد الطفولة، الشباب ، النضوج، الشيخوخة والموت، التي لا تنطبق على الحيوان والنبات فقط بل تصدق أيضا على المجتمعات والأجناس وربما انطبقت على العالم كله واستخدم هذا المذهب أفلاطون في اضمحلال وسقوط المدن اليونانية كذلك ميكافيلي فيكون شينجلر وتونبي " .⁽²⁰⁾

إذا كان لا بد حسب هذا النسق التاريخي للإنسانية أن تسترشد به فإنه في ذات الوقت لا يجب أن يسلب التنوع والاختلاف بين الأفراد ، وبأي حال من الأحوال لا يجب أن توجه آراءهم، أهدافهم وأغراضهم ، فهذه العناصر وحدها هي التي تصنع تاريخانيات وأنطولوجيات الفرد ويختزلها النسق الكلي من أجل تحقيق " غاية الطبيعة بتعبير كانط أو غاية العقل " حسب هيغل ، لكن هذه الإدعاءات تتجسد في اتخاذ هدف مشترك مهما كان ما هو في الحقيقة إلا طمس معالم التعارض وإمكانية نقد ما هو سائد، " إنَّ التاريخانيون يتنبئون بمجيء عالم تعمه الحرية، علم يمكن فيه تخطيط الأمور الإنسانية تخطيطا عقليا، وهم يقولون إنَّ الانتقال من عالم الضرورة الذي تقاسي فيه الإنسانية إلى عالم الحرية والعقل، إنما يتحقق بالضرورة القاسية وقوانين التطور التاريخي التي يجب أن نخضع لها " .⁽²¹⁾

إن التاريخاني يجهل أن هذا المخطط فاشل مسبقا وهو نوع من الإيديولوجيا ، إذ بدل أن يرسم مخططا وفق معطيات مجتمعه ورغبات أفرادها ، يسعى إلى تغيير أفراد المجتمع حتى يتلاءموا مع مجتمعه الجديد ، أما الذين يرفضون السير على هذا المخطط بغية إطلاق العنان لتجارهم الانطولوجية وفسح المجال للإبداع، فإنهم متهمون من طرف التاريخانيون بأنهم لا يعيشون وفق العقل ودوافعهم الإنسانية لا

تزال بحاجة إلى المزيد من التنظيم، "إنّ المذهب التاريخاني يقول ببطلان كل محاولة تهدف إلى تغيير التطورات الوشيكة الوقوع، إنّ هذا المذهب نوع فريد من القدرة، وكأنّها قدرة بإزاء الاتجاهات التاريخية" (22)

إن هؤلاء التاريخانيون يزعمون القدرة على فهم المجتمع وفق حاجات العصر التي يحددها فيما يمكن أن يكون هذا الزعم غير نوع من الإيديولوجيات التي يريدونها أن تفقد التاريخ لا لغاية يحملها لكنها غايات في ذاتهم. يمكن أن نفهم من التاريخ، السائر وفق مخطط مسبق أنه خاضع لنوع من الحتمية والقدرة لأنه يحدد البدايات والنهايات، وكل مراحل التطور، ويلغي إمكانية إحداث المفاجأة من طرف الأفراد، إنّها أنساق ساكنة لا تقبل إمكانات الإبداع والابتكار أو الانحراف عن المسار المحدد سابقا رغم أنّها تقدم على أنّها أنساق تدعو إلى تقدم مستمر لا يحدث إلا على مستوى تخطيطها النظري مقصية دور الأفراد فيها، يقول بوبر: "إنّ التطور التاريخي لا يتشكل قط نتيجة للخطة النظرية مهما برعت، حتى وإن اتفقت هذه الخطة العقلية ومصالح بعض الجماعات صاحبة السلطان فإنّها لم تتحقق أبدا على نحو ما تصورت ... سوف تكون النتيجة الحقيقية دائما مختلفة جد الاختلاف عن الخطة النظرية سوف تظل حلما يوتوبيا بعيد عن الواقع". (23)

يمكن أن نحصل كل ما سبق ذكره من أن هذه التاريخانية تقوم على أساس قوانين كلية لا تعتبر الحادث الفردي محركا للتاريخ، إنّها أنساق تأسر العقول الفردية وتوجه الأفراد كالطوفان بدل أن يدفعها الأفراد، فهيجل مثلا يرى أن المصير التاريخي للإنسان، الذي يفترض سيره وفقه هو أن يقبل ويدعن لتلك العلاقات الاجتماعية والسياسية، تحدد هذه العلاقات بشكل أو بآخر، ويكون هيجل قد أحل الضرورة محل التفاؤل المستنير، كما يمكن تأويل التاريخ باعتباره تاريخ الصراع بين الطبقات أو تاريخ صراع البشرية من أجل الحصول على السيادة وأنه تاريخ صراع فكرة تسعى للتسامي مع اللامتناهي، أو صراع من أجل بلوغ الحرية، أو تاريخ التقدم الإنساني (فولتير)، ويمكن أن نقبل بكل وجهات النظر هذه على أنّها تأويلات تخص أصحابها، غير أن التاريخانيون يصرون أن نظريتهم تمثل القانون المطلق الذي يسير التاريخ، وهو ما يستنكره بوبر في بؤس الإيديولوجيا قائلا "المذهب التاريخاني يفهم هذه التأويلات خطأ على أنّها نظريات وهذه إحدى مثالبه الكبرى، فمن الممكن تأويل التاريخ باعتباره تاريخ الصراع بين الطبقات أو تاريخ الصراع بين الأجناس البشرية من أجل السيادة، ومن الممكن تأويله على أنه صراع بين الأفكار الدينية أو بين المجتمع المفتوح أو المجتمع المغفل، أو باعتباره تاريخ التقدم العلمي والبضاعي، وكل هذه وجهات نظر تزيد أو تنقص في أهميتها ولا اعتراض لنا عليها من حيث هي تأويلات لكنهم يعرضون هذه التأويلات على أنّها مذاهب ونظريات". (24)

يتمثل أكبر عيب لمخططات التاريخانية في إعلانها نهاية التاريخ واكتسابه لخطة تحقق الغاية وإن كانت لا يتم بلوغها إلا على المستوى النظري، فإن الواقع الإنساني لم يثبت فعلا فكرة الاكتمال ولم تكن إلا فكرة مجردة، ذلك أن هذا الواقع يخضع دائما للتجدد والتغير . عادة ما تقيم فلسفات التاريخ على أساس مفهوم التقدم باعتباره المحرك الذي يدفع التاريخ إلى الإمام، لكنهم لم يكونوا قادرين على تصور التاريخ كمجال مفتوح أمام الإبداع البشري، بل يتسارعون في إعلان نهاية التاريخ بتحقيق غايته، فهذا هيجل الذي يجعل التاريخ صراعا من أجل الوصول إلى الحرية، فإنه حينما يصل إلى الحديث عن الأمة الجرمانية فإنه يوقف الصراع وينهي التاريخ بحجة أن الحرية اكتملت في دولته وعرقه؟؟

نتساءل هنا عن نوع النهاية التي تحدث عنها هيجل، وإن قصد بها "النقطة التي بلغها الوعي" أي الحد الأقصى الذي بلغه التقدم، فالإنسانية لا يمكنها أن تبلغ تقدما ولا وعيا أسمي منه، فإن الواقع التاريخي يثبت أن الوعي والمعارف الإنسانية تقدم دائما ما هو جديد مستجد والواقع الإنساني يقدم معطيات جديدة أكثر مما يوصلنا إلى نهاية محددة .

إن التاريخ بهذا المعنى الذي طرحه التاريخانيون لا وجود له ولا معنى له بالنسبة لبوبر .

معنى التاريخ:

إن الرؤية التاريخية التي سنحاول استخلاصها من أعمال كارل بوبر، والتي لا تشكل أساسا فلسفة للتاريخ بقدر ما هي فهم لمعنى التاريخ وتصور له، وينبع ذلك أساسا من النقد الذي وجهه هو نفسه لكل أنماط التاريخانية وهو ما تجلّى في "بؤس التاريخانية" وبالرفض الذي أعلنه لكل ما هو مغلق في كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" أي من خلال محاولته لوضع نظرية للمجتمع قائمة على فكرة التفتح .

ولم يكتف بوبر بكونه إبستمولوجي فقط بل يسعى لنقل اهتماماته بمشكلات العلم إلى مجال مشكلات المجتمع والسياسة، فقاده اهتمامه بمشكلة تطور ونمو المعرفة العلمية، إلى نوع من النقد المزدوج للإبستمولوجيا التقليدية ولمنهج العلوم الاجتماعية والسياسية، وانتهى على أنه لا يمكننا أن نصل إلى تقدم العلم ولا المؤسسات الاجتماعية ضمن الأنساق المغلقة تبني نموذجاً فيزيقياً ميكانيكياً استقرائياً مغلقاً، وعليه فإن حركة الأفراد في التاريخ وتصورنا له يجب أن تحطم انغلاق هذه الأنساق بأن تعتنق فكرة التقدم لا تنتهي إلى حد معين، وإنما تبقى مفتوحة على القوى الإبداع البشرية، لذا راح بوبر في بداية مقالته "هل للتاريخ معنى؟" يتحدث عن الأساس الذي تبنى عليه المعرفة العلمية لينتقل فيما بعد مما هو علمي إلى ما هو تاريخي محاولاً الإجابة عن سؤال هذا المقال يقول بوبر "إنَّ المنهج العلمي لا يتأسس على البحث عن تحقق النظرية من خلال إيجاد براهين وأدلة إثباتها، إن ما يعطي الطابع العلمي هو محاولة بيان أن الرؤى التي تأسست عليها النظرية خاطئة وهذا هو مفتاح المنهج العلمي"⁽²⁵⁾ ويواصل في التأكيد على أنَّ مفتاح المنهج العلمي إنما يبنى بنظرية إبستمولوجية مفتوحة "إنَّ التاريخ أن النظرية العلمية تعكس من خلال التجارب وأدوات التقدم العلمي وعليه فإنَّ مسيرته ليست دائرية، من حيث أنه لا يوجد نظرية نهائية وإنما كلها افتراضات".⁽²⁶⁾

إن المنهج الاستقرائي حسب بوبر يلغي دور الأفراد في تسيير حركة التاريخ والمجتمع، ويجعلهم خاضعين للحتمية والقدرية بتكرار النماذج التي كانت موجودة في الماضي، فيحد من قدرتهم على الإبداع والابتكار يقول بوبر "لا يمكن للطبيعة ولا للتاريخ أن يوجها نحو ما الذي ينبغي علينا فعله، كما لا يمكنها أن تضع لنا التصورات ولا الغايات، بل يجب علينا أن نختار قراراتنا وغاياتنا، إننا نحن الذين نضع للطبيعة والتاريخ الغايات والقصد التي نشاء"⁽²⁷⁾، إنَّ العلم الإنساني حسب بوبر لا يكف عن التطور المفتوح نحو الأمام وكذلك التاريخ الإنساني.

إن أهم فكرة يريد بوبر أن تتجسد في التاريخ هي فك انغلاق الأنساق وتكريس الانفتاح لا كفكرة نفرضها على المجتمع ككل، وإنما كواقع معاش في الوجود الاجتماعي لكل فرد، كممارسة فردية لكل جزء من المجتمع، تحترم فيه إرادات الأفراد في تحقيق رغباتهم، بل تكون المنطلق لكل إبداع وتقدم يقول بوبر "تلعب إرادتنا دوراً حاسماً في مجرى التاريخ"⁽²⁸⁾

إن الاعتزاز والافتخار الذي يكتب به بوبر عن المجتمع الأثيني من حيث أنه مجتمع عرف فكرة الانفتاح بفضل انتشار الكتابة والثقافة وأدت إلى ظهور ما يسميه بوبر "الجيل العظيم"، الجيل الذي بإمكانه أن ينير مجتمعه بنشر الوعي بين أفرادها فتتحرك عجلة التاريخ قدماً إلى الأمام، وهو أيضاً نفس الجيل الذي دفع أوروبا الحديثة نحو النهضة بعد ظهور الطباعة وإحياء الآداب القديمة، وازدهار الفنون.

إن هذا الاقتران الذي يعقده بوبر بين الوعي - انتشار القدرة على القراءة، والاضطلاع على مختلف مجالات المعرفة - والنهضة يجعلنا نفهم أن بوبر جعل أساس تقدم التاريخ وتطوره هو انتشار الوعي بين أفراد المجتمع، فالإطلاع على ثقافات ومجالات معرفية مختلفة هو الذي يؤدي إلى ظهور "الجيل المتنور" أو "الجيل العظيم" ويؤدي إلى شعور الأفراد بضرورة تغيير المؤسسات الاجتماعية -خطوة بخطوة- وفق ما تقتضيه ضرورتهم ومعطيات راهنهم، يقول بوبر يجب أن نكون مدافعين عن العدالة والمساواة وأن نساهم في بناء المجتمع المفتوح وندعو له، إذ ليس التاريخ هو الذي يوجها نحو ما يجب أن نفعل وإنما نحن الذين نخلب الهدف والمعنى... يجب أن نصارع من أجل المساواة في الحقوق، وحتى وإن لم تكن مؤسسات اجتماعية عقلانية فيجب أن نكافح من أجل عقلنتها".⁽²⁹⁾

إن هذا الوعي - وعي الأفراد - يمنحهم إرادة الوجود في مجتمعهم، وإرادة السير بالتاريخ وفق ما يرغبون وما يخططون معاً لأجل تحقيق التطور بمجتمعهم وبهذا يكون سير التاريخ نحو التقدم، فالأفعال حسب بوبر "ليس لها معنى في حد ذاتها وإنما نحن الذين نقرر إعطائها معنى ما، إنَّ صعود التاريخانية بالظلم والجور والقهر لأنها رفضت أن نكون مسؤولين عن أفعالنا واختياراتنا".⁽³⁰⁾

لا يضع بوبر خطة تحقق التقدم في التاريخ، فكل ما هو ممكن هو ما تقدر إرادات الأفراد على صنعه، فلا يكون المستقبل ماثلاً أمامنا كنسخة عن الماضي لكن أن نجعل الحاضر أساساً لنقد الماضي ومنطلق لتغيير أفق حاضرننا نحو إمكانيات يكشف عنها المستقبل، إنها لحظة أنطولوجية يعيشها الفرد ضمن ذاته ومع مجتمعه لتغيير مؤسساته وإعادة هندستها.

لقد اتخذ بوبر منهجاً أسماه "التحليل النظامي والمؤسسي" لشروط التقدم "ولكي نعثر على شروط التقدم فإن ذلك يتطلب عملية استقصائية بحثاً عن الظروف التي يترتب عليها تحقيق التقدم". "فاللغة مؤسسة اجتماعية يستحيل تصور التقدم العلمي بدونها... والكتابة مؤسسة اجتماعية، وكذلك المنظمات الخاصة بالطباعة والنشر وسائر المؤسسات التي يتخذها المنهج العلمي أدوات له، وللمنهج العلمي

نفسه جانب اجتماعي والتقدم العلمي ناتج عن حرية التنافس الفكري"⁽³¹⁾ وعليه فإن تقدم المجتمع والتاريخ مرهون بتحقيق التقدم في نهاية الأمر على العوامل السياسية إلى حد بعيد، أي أنه يعتمد على "المؤسسات السياسية التي تحمي حرية الفكر، ويعتمد على الديمقراطية".⁽³²⁾

وإذا كان انتشار الوعي هو بذور النهضة بالنسبة لبوبر فإن ذلك لا يكون إلا إذا كان هناك مجال واسع للحرية يمارسها أفراد المجتمع ويبدعون من خلال معاشتها، لهذا راح بوبر يدعو إلى ضرورة تأسيس المجتمع على أسس ديمقراطية مثلما يسمح وجود الديمقراطية في اليونان بخلق الجيل العظيم ويقصد بوبر بالديمقراطية " التمسك بالنظم والمؤسسات الحرة القادرة على نقد الحكام وتغييرهم دون إراقة الدماء".⁽³³⁾ فالتاريخ بالنسبة إلى بوبر ليس تاريخ صراع وإنما تاريخ تصحيح وإصلاح .

يرى بوبر إذن أنه ليس هناك " علم التاريخ " فالتاريخ ليس مجال العلم بل للتأويل ، فلا يحمل التاريخ نظريات تاريخية وإنما مجرد " رؤى " و " وجهات نظر " ، بل أنها تأويلات تخص أصحابها وعليه لا يمكن اختبارها ولا إخضاعها للتكذيب، يقول بوبر " لا يوجد أي قانون أن يخدم التاريخ، إن المؤرخ يمكن فقط أن يعطي وجهة نظر لدى دراسته للتاريخ حيث لا توجد نظريات متوحدة فالقوانين التي نستعملها ليس لها طابع مواضع مشتركة، إذن فالقدرة على تنظيم المادة التاريخية موضوع الدراسة معدوم".⁽³⁴⁾

لقد فهم المذهب التاريخاني هذه التأويلات خطأ، كتأويل التاريخ على أنه الصراع بين الطبقات أو تاريخ الصراع بين الأجناس البشرية من أجل السيادة، وتاريخ الأفكار الدينية أو الإيديولوجية، أو بين المجتمع المفتوح والمغلق، وينظر التاريخانيون إلى كل هذه التأويلات على أنها إلزام ولا يعرضها على أنها تأويلات، فهو يفرضها كمذاهب ونظريات، وإذن فيها شيئا من التطابق بينها وبين الواقع اعتبروه برهانا على صحتها وصدقها.

يرى بوبر أن لاشيء مطلق وثابت في التاريخ وفي الواقع الإنساني، إذ لكل جيل مشكلاته الخاصة ونظريته الخاصة في إصلاح هذه المشكلات وإعادة صياغة البنى الاجتماعية وفق مصالحه الخاصة، ويترب على ذلك أن "على أن على كل جيل أن يعيد تأويل التاريخ من زاويته، ليظهر بالتاريخ الذي يهيمه والتأويل الذي يعنيه انطلاقا من مشاكل عصره ويجب أن نعرف كيف نكون مرتبطين بالتاريخ ونستخلص العبر منه "⁽³⁵⁾ يقول كارل بوبر: "ليس هناك حقائق موضوعية في التاريخ بل مجرد تأويلات تتحرى الموضوعية بتجنبها الميل اللاشعوري والتغير غير النقدي وبهذا يمكن أن يكون تأويل خصب، حينما تبرهن على قدرتها على إضاءة الوقائع وبيان موضوعها وتوضيح مشكلاتها الحاضرة".⁽³⁶⁾

لا يمكن أن يكون هناك تاريخ يصف الماضي كما حدث بالفعل فتغدو كل كتابة في التاريخ "تأويلات تاريخية" ذات طابع احتمالي، لا يمكن أن نفهم من هذا أن بوبر حط من قيمة التاريخ، بل أنه دعى إلى ضرورة كتابة التاريخ وحفظه ليس باعتباره حقا على الأجيال بل واجب عليهم لأن كتابة التاريخ تمكننا من الإطلاع على أخطاء الماضي والاستفادة منها، وتبين لنا العلاقة بين مشكلات الحاضر وترابطها بمعطيات الماضي. إن الماضي يمثل مجال الأخطاء التي ارتكبتها الإنسانية والحاضر موقع دراسة نقدية لتلك الأخطاء وبحمل المستقبل الأمل في التغيير والإصلاح، وهكذا يتطور التاريخ لا بالتصورات التاريخانية وإنما بالمساءلة العقلانية، يقول بوبر " يجب أن يكون تأويلنا للتاريخ انطلاقا من رؤية نقدية، لا أن نجيب بتأويلات تاريخانية ولا يكون ذلك إلا إذا غيرنا طريقة طرح السؤال من ما هي مشكلاتنا الجوهرية؟ كيف وجدت؟ ما هي الواجهة التي يجب اتباعها لحل هذه المشكلات؟ بل علينا التساؤل إلى أين نتجه نحن؟ أي دور نخدده للتاريخ"⁽³⁷⁾

لقد كان التاريخاني يبحث دائما عن الطريق الذي قدر للبشرية أن تسلكه وفق الغاية التي يختارها للتاريخ، وأراد بوبر أن يبحث عن الأفراد الفاعلين في التاريخ عن "الجيل العظيم" الجيل المتنور، إنه يبحث متسائلا: "هل للتاريخ معنى؟".⁽³⁸⁾ يجيب بوبر أن التاريخ بالمعنى الذي يتحدث عنه معظم الناس لا وجود له وعلى ذلك يقر بأن ليس للتاريخ معنى "لقد اعتاد الناس الحديث عن التاريخ وتعلموا شيئا منه في المدرسة أو الجامعة، وقرأوا كتباً حوله، ورؤوا ما يعالج في هذه الكتب تحت اسم "تاريخ العالم" أو "تاريخ الجنس البشري" ودرجوا أن ينظروا إليه بوصفه سلسلة محددة من الوقائع، واعتقدوا أن هذه الوقائع تشكل التاريخ البشري لكنها في الحقيقة لا تشكل سوى "تاريخ السلطان السياسي".⁽³⁹⁾

يرفض بوبر أن نكتب تاريخ النفوذ السياسي باعتباره تاريخ الجنس البشري لأن التاريخ السياسي ما هو إلا تاريخ الجرائم الدولية والقتل الجماعي ... إن الكثير من مجرمي الإنسانية صورههم التاريخ على أنهم أنزه البشر ونحن نتعلم في المدارس أن هذا هو التاريخ الحق ونحمل على تمجيد حفنة من المجرمين بوصفهم أبطال التاريخ".⁽⁴⁰⁾

وإذا كان بوبر يقر في مجال الإستمولوجيا أن معرفتنا وعلمنا لها طابع افتراضي تخميني كونها منتوجا إنسانيا خاضع لقاعدة أن ما يصدر عن النسبي فهو نسبي بالضرورة، وباعتبارها كذلك فهي تنمو وتتطور وفق مسار تطوري دارويني بيولوجي مفتوح. هذه الفكرة الإستمولوجية تخترق كل البناء المعرفي الذي أسس عليه بوبر فلسفة بما فيها نظريته في علم الاجتماع أو نظريته للتاريخ .

إن بوبر يرفض قطعاً أن نعيش في الاكتمال أو نسعى إليه، بل علينا أن نقر في لأنفسنا بأن كل ما نصل إليه في المستوى المعرفي أو الاجتماعي إنما هو الاكتمال الذي يجب أن يخضع للدحض الذي يعيد البناء ويدفع الإنسانية نحو التقدم وهو بذلك يسلب التاريخ من المطلق الهيغلي بطرحه أمام الأفراد ليفتحوا التاريخ أمام إمكاناتهم.

وعلى هذا يكون سير التاريخ عند بوبر هو الآخر ذو مسار تطوري دارويني بيولوجي مفتوح يقر بلا اكتمال التاريخ ، وخضوعه لإمكانات وإرادات الأفراد لا خضوع الأفراد لغاية الوحيدة هي ما يحققه الإنسان يقول كارل بوبر " ليس للتاريخ غايات ولكن بوسعنا أن نفرض عليه غاياتنا ، وليس للتاريخ معنى ، ولكن بوسعنا أن نضفي عليه المعنى " (41)

لا يجب أن نفهم أنه إذا كان بوبر قد جعل مسار التاريخ تطوري دارويني فإنه يجعل أحداثه تتقدم بصراع الأفراد ، ذلك أنّ فلسفته تقوم على فكرة التفتح إنما تدعو في جوهرها أن نعيش معا وفق الاختلافات الكائنة بيننا ، أن نقدر الإنسانية ونلغي كل نزعة عنصرية⁽⁴²⁾ إن بوبر يؤمن بالغيرية، بوجود الأنا ضمن الآخر والانفتاح عليه ، ولا يدعو إلى العدمية ولا لتناطح الإرادات، يدعو بوبر لمنهج الإصلاح لأنه ديمقراطي، والديمقراطية تدعو إلى صراع الأفكار لا إلى صراع الإرادات والقوى، إنما الإقرار بالاختلاف والتعدد والتنوع الاثني العرقي واللغوي. إن الديمقراطية حسب بوبر جديرة بتأطير المجتمع المفتوح وتعطي حق المواطنة لكل الأفكار مهما تباعدت أقطابها وتدعو البشر إلى التعايش السلمي في مجتمع آمن مبدؤه اختلافنا يدعو إلى البحث عن الحقيقة لا إلى الصراع "إن دولة الديمقراطية تقدر الإنسان تمنع الجريمة فصوص الأغلبية لا يلغي حق الأقلية". (42)

لقد كانت الديمقراطية الأساس الذي يبنى عليه بوبر صرح مؤسساته الاجتماعية وهي بالنسبة إليه تتحقق بالإصلاح لا بالثورة يقول بوبر : "إن البشر ليسوا متساوين لكننا يمكن أن نناضل معا من أجل عقلنتها...إن لغتنا نفسها ليست عقلانية بقدر ماهي عاطفية...إننا نحاول أن نكون أكثر عقلانية، بأن ندرب أنفسنا على استعمال اللغة كوسيلة للتعبير عن ذواتنا ووسيلة للاتصال العقلاني". (43) إن بوبر هنا ينحو منحى هابرماس حينما يستعمل اللغة كأداة تحقيق التواصل العقلاني بين الذوات.

لقد أدت اليوتوبيا إلى نتائج كارثية في التاريخ، الفقر، العنف اللاتسامح، إراقة الدماء... لهذا لم يشأ بوبر أن يطرح أي تصور محدد للتاريخ، كي لا ينتهي الأمر إلى ما انتهت إليه التاريخانية الحديثة، وإنما يقترح مقارنة عقلانية للمسألة الاجتماعية وهو هنا يتمثل مع مقاربات الفلسفة المعاصرة في رفضها للمطلق والأنساق المغلقة ويفتح التاريخ لإمكانات وأفعال البشر ملغيا فكرة التاريخ بالاكتمال أو "التاريخ المفتوح" " يكون للتاريخ معنى حينما يتحقق التقدم بفضل أفعال الأفراد وجهدهم ويتحسد ذلك من خلال تحقيق الديمقراطية والحرية"⁽⁴⁴⁾ فوحدها الحرية التي تمنح المجال الفسيح للرحب لإبداع الأفراد وإعمال فكرهم وتحقيق العقلانية التي يريدونها.

وإن كان بوبر رافضا للأنساق الهيغلية والماركسية، كالأنساق الدوغماتية انحت تطور التاريخ عند فكرة محددة فإنه أيضا كان حذرا من الوقوع في العدمية الهيدغرية والتنشوية، فالمقاربة البوبرية الاجتماعية والسياسية تنهل أكثر من الروح الكانطية قائمة على النقد والداعية إلى تحقيق السلام العالمي.

يدعو بوبر إلى استمولوجيا "بدون ذات عارفة" في العلم والعقلانية النقدية، تؤمن بقدرة العقل وقدرة الإنسان يكون تصورها للتاريخ قائم على نظرة تفاعلية أساسها التقدم والتطور الخلاق سعيا لتحقيق حرية الإنسان وانعتاقه، وتحقيق الرفاهية لكل أفراد المجتمع وفق ما يؤسسون وما يبرهنون على قدرة مواجهة مشاكل الحياة والمجتمع بطريقة عقلانية.

وإذا كان بوبر يدعو إلى ثورة في العلم ومناهجه لأن تطوره مرهون بنقده وتفنيده، إلا أنه يرفض أي شكل من أشكال التخطيط المسبق للمجتمع أو التاريخ كي لا تنتهي إلى ما انتهت إليه التاريخانية.

الهوامش:

1. قسم الفلسفة - جامعة وهران الجزائر.
2. كارل بوبر - يؤس الإيديولوجيا - ترجمة عبد الحميد صيرة - دار الساقى - ط1 - س 1992 - ص 5.
3. المرجع السابق، ص 7، 8.
4. K. Popper ; La société ouverte et ses ennemies, T2 Hegel et Marx tra de l'anglais par jacqueline Bernard et Philippe monode Ed Seuil Paris 1979 , P269.
- كارل بوبر - المجتمع المفتوح وأعداءه، ترجمة لخضر مذبوح، الحوار الفكري - مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية - جامعة منتوري قسنطينة الجزائر ، ص 172 / 173.
5. روني بوفريس - العقلانية النقدية عند كارل بوبر - ترجمة سعيد بوخليط - العرب والفكر العالمي - مركز الانماء القومي - لبنان العدد 24/23 السنة 2008 - ص 68.
6. كارل بوبر - يؤس التاريخية - المرجع السابق ، ص 79.
7. المرجع السابق ، ص 63 - 68.
8. المرجع السابق ، ص 13.
9. عادل مصطفى - كارل بوبر - مائة عام من التنوير والنهضة ونضرة العقل - دار النهضة العربية - بيروت - ط1 - السنة 2002 - ص 195.
- يرى الكثير من المفكرين أن هيجل لم ينحى نفس منحى فلاسفة الأنوار كديكارت مثلا في التأسيس لفكرة "الله" خلود النفس تأسيسا عقليا ولم يتحدث عن الدين في حدود العقل كما فعل كانط، بل إنه حتى لم يجعل العقل معارضا للدين وهادما للعقائد كما فعل مفكرو الأنوار كرد فعل على سيطرة الكنسية، بل كل ما سعى إليه هيجل هو تحقيق هذا اللقاء بين المتناهي واللامتناهي وبحث الكثير من الأفكار المسيحية في الفلسفة عامة وفي فلسفة التاريخ كنوع من تجلي هذا المتناهي.
10. K.Popper : la société ouverte et ses ennemies- T2- Ibid- P 180
11. كارل بوبر: يؤس التاريخية - المرجع السابق - ص 64.
12. كارل بوبر - المجتمع المفتوح وأعداءه - المرجع السابق ص 175.
13. كارل بوبر - يؤس الايديولوجيا - المرجع السابق - ص 93.
14. المرجع السابق - ص 102.
15. هيجل - العقل في التاريخ - محاضرات في فلسفة التاريخ - ترجمة إمام عبد الفتاح إمام - دار التنوير للطباعة والنشر - ط 2 - السنة 1981 - ص 90.
16. عادل مصطفى - كارل بوبر - المرجع السابق - ص 182.
- يعتقد هابرماس في "الخطاب الفلسفي للحدث" أن مفهوم التقدم لم يستخدم فقط لإضفاء الصفة الدنيوية على أمور الآخرة وفتح أفق الترتب بالاتجاه الطوباري وذلك بتدشين التاريخ بالبنية الغائية بل أن هذا المفهوم قد استخدم أيضا من أجل سير المستقبل باعتباره مصدرا وهم وقلق.
17. محمد علي الكيسي - خطاب التقدم والتقدم المضاد لدى كارل بوبر - الفكر العربي المعاصر - مركز الإنماء القومي - العدد 37 - السنة 1985 ص 97.
18. كارل بوبر - يؤس الايديولوجيا - المرجع السابق ، ص 118.
19. المرجع السابق ص 120.
20. المرجع السابق - ص 120.
21. المرجع السابق - ص 65.
22. المرجع السابق - ص 66.

23. المرجع السابق - ص 61

24. المرجع السابق - ص 154.

25. K . Popper – La société ouverte et ses ennemies - T2 – Ibid P174.

26. Ibid P175.

27. Ibid P184.

28. Ibid – P184 – 185 .

29. Ibid – P184

30. Ibid – P185

31. كارل بوبر ، بؤس الايدولوجيا - - المرجع السابق ص 157.

32. المرجع السابق - ص 178.

33. كارل بوبر - الحرية والمسؤولية - ترجمة زواوي بغورة - الحوار الفكري - مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية - جامعة منتوري قسنطينة الجزائر - العدد 4 - نوفمبر 2002 - ص 149.

34. K . Popper – La société ouverte et ses ennemies – T2 – Ibid P 177.

35. Ibid P178.

36. Ibid P 178

37. Ibid P 179

38. Ibid P 179

39. Ibid P 179 – 180

40. Ibid P 180

41. Ibid P184

* لهذا وجه بوبر نقد شديد اللهجة لهيغل حينما قلل من شأن الحضارات القديمة ، وحينما أيد النزعة الإستعمارية لشمال إفريقيا .

42. Ibid P184

43. Ibid P184

44. Ibid P 185.

